محمد عبده
ومحاولته إصلاح الأزهر

للأستاذ عثمان أمين
المدرس بكلية الآداب

للأزهر منذ إنشائه قصة طويلة ، وله مهمة معلومة نيط به أداؤها . فلم يكن المقصود منه أن يكون مسجداً للعبادة ، ولا أن يكون مدرسة للتعليم فحسب ، وإنما أثر الأزهر فى العالم الإسلامى وفى تكوين العقلية الإسلامية أثراً عميقاً يفوق أثر المساجد والمدارس والجامعات . من أجل ذلك كان إصلاح ذلك المعهد فى نظر الشيخ محمد عبده من الأهمية بمكان عظيم ، لأنه بمثابة إصلاح للأمة الإسلامية كلها

توجه الشيخ محمد عبده إلى إصلاح الأزهر منذ كان مجاوراً فيه يتلقى على أستاذه السيد جمال الدين الأفغانى . وشرع فى العمل لذلك أيام الخديو توفيق . ولكنه لم يستطع فى ذلك الحين أن يُدخل إلا بعض الإصلاحات الثانوية . ووجد محمد عبده ، منذ البداية ، فى أكثر شيوخ الأزهر خصوماً ناصبوه العداء . وأدرك حينئذ أنه لن يستطيع السير فى حركة الإصلاح دون أن يظفر بتأييد الخديو والحكومة . ولكن الخديو توفيق لم يكن لديه استعداد لفهم التجديد المنشود ، فلم ينظر إلى جهود الشيخ محمد عبده بعين العطف والرعاية . ولما جاء الخديو عباس الثانى — وكان قد تربى فى أوربا — استبشر الناس بولايته ورأوا فيها فاتحة عهد جديد . وتقدم الشيخ محمد عبده إلى الخديو عباس وكاشفه بجملة رأيه فى الأزهر ، ورغبه فى إصلاحه وتحويله من الحال التى كان عليها ، وكان فى ذلك الحين أشبه بثكنة من الثكنات أو ملجأ من الملاجىء ، يأوى إليه العجزة والفقراء وأهل الكسل والبطالة

ويمكن أن نلخص رسالة الأزهر كما تراءت حينئذ للشيخ محمد عبده فى الأمور الآتية : أن يكون مدرسة جامعة بالمعنى الصحيح يتلقى فيها الطلاب العلم الصحيح الذى يعدهم لأن يكونوا رجالاً عاملين ، فيكون منهم لمصر وللاسلام قضاة ذوو نزاهة ، وأساتذة باحثون ، وعلماء متخصصون ، ومرشدون مخلصون يعملون على بث الآراء الدينية الصحيحة ، والمعانى الأخلاقية السليمة ، ومكافحة الخرافات ، والقضاء على البدع والأباطيل

وكلف الخديو الشيخ محمد عبده أن يضع مشروعاً للاصلاح فشكل الشيخ لذلك « مجلس إدارة » من أكابر علماء المذاهب فى الأزهر وجعل هو وصديقه الشيخ عبد الكريم سلمان من أعضائه . وكانت مهمة ذلك المجلس الإشراف على التعليم والتربية فى الجامعة الأزهرية

وسار الشيخ فى إصلاحاته أول الأمر بسرعة اغتناماً للفرصة ، ولم يلق معارضة من أحد مباشرة ، وإن كان قد أشير عليه من وقت إلى آخر بتأجيل بعض المشروعات بحجة التدريج والسير بهوادة !

وكان أول أبواب الإصلاح التى وجه الشيخ عنايته إليها هو تحديد مدة الدراسة بالأزهر : فقد جرى العرف منذ زمان طويل أن ينفق المجاورون من أعمارهم الأعوام الطوال فى الأزهر ، دون أن يجدوا من أولى الأمر أية رقابة على أعمالهم . وحدد القانون بدء السنة الدراسية ونهايتها ، كما حددت أيام العطلة والمساحات . وقد كانت الحال قبل ذلك بلا ضابط : فكان المشايخ والطلاب يمكنهم التغيب متى شاءوا فضلاً عن تغيبهم أيام المساحات الرسمية

ووجه الشيخ بعد ذلك عنايته إلى نظام التدريس والامتحان : فاقترح أن تعقد للطلبة امتحانات سنوية . ولم يكن ذلك النظام معروفاً قبل ذلك فى الأزهر ، بل لم يكن عدد من يمتحنون كل عام يزيد على ستة ، وهؤلاء كانوا يتقدمون إلى الامتحان لا بحسب دورهم أو ذكائهم أو علمهم ، بل بشفاعة الشفعاء وإلحاح الملحين . واقترح المشروع كذلك مكافأة الطلبة المتفوقين من بين الممتحنين ، والغرض من ذلك طبعاً هو بث روح التسابق فيهم وترغيبهم فى التحصيل

وثالث الإصلاحات التى اقترحها الشيخ محمد عبده : إصلاح لا يقل عن سابقيه أهمية وأثراً ، وهو يقضى بإلغاء دراسة بعض الكتب العقيمة — كالشروح والحواشى والتقارير — التى اعتاد المشايخ تلقينها الطلبة من غير فهم ، وكان من شأنها أن تشوش عليهم موضوعات العلوم التى يدرسونها ؛ واستعيض عن ذلك كله بكتب أنفع وأقرب إلى مدارك الطلاب

ورابع الإصلاحات يرمى إلى تقسيم العلوم التى تدرس بالأزهر إلى مقاصد ووسائل ؛ فأطيلت مدة الدراسة فى « علوم المقاصد » : كالتوحيد والتفسير والحديث والفقه وأصول الفقه والأخلاق . أما « علوم الوسائل » : كالمنطق والنحو والبلاغة ومصطلح الحديث والحساب والجبر ، فهى التى يلزم طلاب شهادة العالمية بأداء امتحان فيها

والإصلاح الخامس يقرر إدخال دروس ومحاضرات جديدة فى علوم : التاريخ والتاريخ الطبيعى والرياضيات والجغرافيا والفلسفة والاجتماع وما إلى ذلك من العلوم التى كان قد أهمل تدريسها بالأزهر إلى ذلك الحين

ويلاحظ أن تلك الإصلاحات المتواضعة لم يستطع الشيخ محمد عبده أن ينفذها جميعها لمقاومة الشيوخ إياها ، إما عن سوء قصد أو سوء فهم ، فضلاً عن وقوف الخديو نفسه حجر عثرة فى وجه المشروع انتقاماً من الشيخ محمد عبده — كما سنرى — ولكن ما نفذ من الإصلاحات المقترحة لم يخل من أن يحمل ثمراً طيباً : فقد شوهدت فى طلبة الأزهر إذ ذاك حماسة جديدة ، ودبت فيهم روح فتية ، وشاعت عندهم رغبة فى التوسع فى التحصيل واستيعاب البرنامج التعليمى . وربما كان من الميسور إطراد ذلك التقدم لولا قيام مصاعب جديدة لم تكن فى الحسبان

والواقع أن الشيخ محمد عبده إذا كان قد استطاع أن يضع مشروعاً كاملاً للاصلاح ، فذلك لأنه كان يحس بأن من ورائه سلطة الخديو تؤيده . هذا إلى أن شيخ الأزهر الشيخ حسونة النواوى كان يشاطر الشيخ محمد عبده كثيراً من آرائه . ولكن سرعان ما تبدل موقف الشيخ حسونة عندما ظهر له أن الشيخ محمد عبده لم يكن من أهل الحظوة لدى الخديو عباس[1] . ولما عزل الشيخ النواوى ، حل محله الشيخ سليم البشرى ، وكان رجلاً محافظاً مناوئاً لكل فكرة من التجديد . ومع ذلك ، فقد حظى هذا الرجل برعاية الخديو ، وصدر قرار بإلغاء الإعانات التى كانت تعطى للطلبة المتفوقين . وكان معنى هذا العدول عن عقد الامتحانات السنوية . ولكن الشيخ سليم البشرى أخذ يعود شيئاً فشيئاً إلى آراء الشيخ محمد عبده . وفترت علاقات البشرى بالخديو فعزله دون أن تذكر أسباب العزل فى المرسوم الصادر بذلك

ومنذ ذلك الحين أصبح منصب شيخ الأزهر شاغراً . وكان لا بد من اتفاق الحكومة المصرية مع ممثل الاحتلال الإنجليزى على تعيين من يشغل ذلك المنصب ؛ فعرضت المية السنية على الحكومة — بواسطة اللورد كرومر — أسماء طائفة من مرشحيها ومن بينهم الشيخ حسونة النواوى — وكان قد عاد إلى الحظوة لدى الخديو — والشيخ محمد بخيت الذى كان معروفاً بعداوته للشيخ محمد عبده ، والشيخ محمد راشد الإمام الخاص للخديو ، والشيخ أحمد الرفاعى الذى كان معروفاً بصلته بالبلاط الخديوى . ولم تقبل الحكومة أحداً ممن رشحتهم المية السنية ، ورشحت المية أخيراً الشيخ على البيلاوى ، فوافقت الحكومة عليه ، وصدر قرار بتعيينه شيخاً للأزهر

وكان الوفاق تاماً بين الشيخ محمد عبده والشيخ البيلاوى ، فعاد الهدوء إلى الأزهر ، وأقبل الطلاب على دروسهم وامتحاناتهم ، وانصرف مجلس الإدارة إلى الاشتغال بإنجاز الأعمال العديدة التى كانت أهملت فى عهد الشيخ سليم البشرى : فقرر المجلس عقد امتحان لشهادة العالمية التى تمنح الحاصلين عليها حق التدريس فى الأزهر أو القضاء أو الإفتاء ...

وراجت فى تلك الفترة إشاعة مؤداها أن حديثاً دار بين الخديو عباس وبين « الشيخ البيلاوى » على موضوع الإصلاحات الأزهرية التى أنجزها « الشيخ محمد عبده » . وذكروا أن الخديو قال ضمن حديثه للشيخ البيلاوى : « سمعتُ أنك تعمل فى الأزهر كل ما يريده المفتى (الشيخ محمد عبده) ، مع أنك حر فى أن تعمل برأيك ... » . وذكروا أيضاً أن الشيخ البيلاوى أجاب الخديو : « إنى أوافق المفتى كلما رأيت أن الحق معه ، ولو أخطأ لقلت له ، ولكن لم تعرض بعدُ فرصة لذلك ، فالحمد لله على تلك الحال »

وتألف فى الأزهر خلال تلك الفترة حزب لمعارضة الإصلاح ؛ وكان على رأس ذلك الحزب « الشيخ محمد الرفاعى » الذى ذكر اسمه بين مرشحى « المية السنية » لمنصب مشيخة الأزهر[1] . وكان من أعضاء الحزب « الشيخ النصورى »

(١) إشتهر أمر النفور بين الخديو والشيخ محمد عبده وسببه صدور قرار من مجلس الأوقاف الأعلى — وكان الشيخ محمد عبده عضواً فيه — فى مسألة استبدال أرض للأوقاف فى الجيزة . ولم يكن القرار فى مصلحة الخديو الذى كان شديد الرغبة فى الاستكثار من المال ، كما هو مشهور الخ . . .

(١) ثبت قطعاً أن الحركة التى ترمى إلى مناهضة الشيخ محمد عبده ومرمى مساعيه الاصلاحية كانت مؤيدة من الخديو عباس

الذى كان قد عينه « الشيخ البشرى » شيخاً لرواق الصعايدة . وشرع الحزب يقدم عرائض ينتقد فيها أعمال مجلس إدارة الأزهر . وفى ذلك الحين كان بعض المسلمين قد طلبوا إلى الشيخ محمد عبده — وكان مفتياً للديار المصرية — أن يدلى بفتوى فى جواز أكل المسلم من ذبائح أهل الكتاب ، وفى جواز لبس (البرنيطة) والتزيى بزى الأوربيين . وأفتى الشيخ محمد عبده مصرحاً بأن القرآن لم يحرم طعام غير المسلمين ولا لباسهم ، لا سيما إذا كان المسلم مضطراً إلى أن يعيش مع الأوربيين . فضج حزب المعارضة وأرجف فى تلك الفتوى ، وأخذ يطعن عليها وعلى شخص المفتى . وكان له مأجورون أخذوا يذيعون أن المفتى إنما يعمل على التقريب بين المسلمين وغير المسلمين . وأسس حزب المعارضة جريدة يومية اسمها « الظاهر » ، كان غرضها محاربة الفتوى . وقيل حينئذ إن مدير تلك الجريدة كان مؤيداً من الخديو . . . وراجت الأكاذيب والإشاعات ، وتفاقم الأمر حتى أخذ الناس يهمسون باحتمال عزل المفتى . وقالت جريدة « المقطم » حينئذ إن اللورد « كرومر » هو الذى حال دون ذلك العزل ، إذ تدخل فى الأمر وصرح بأن الشيخ محمد عبده أصلح من فى مصر للافتاء ، وأنه لذلك ينبغى أن يبقى فى منصبه

ولاحظ « الشيخ البيلاوى » أن حزب المعارضة أخذ يشتد ويعظم نفوذه بتأييد الخديو إياه ، حتى أصبح وكأنه الحزب الرسمى ، ووجد هو نفسه معطلاً عن العمل . ثم حدثت حادثة « رواق المغاربة » الذين احتموا بالقنصلية الفرنسية ، واحتلوا بعض غرف خالية فى الرواق العباسى ، وانتهى الأمر بإخراجهم منها ؛ ولكن شيخهم كان أكثر الوقت يتردد على « سراى القبة » . وكبرت هذه الأمور على « الشيخ البيلاوى » ويئس من صلاح الحال فاستقال .

ولما وجد الشيخ محمد عبده نفسه وجيداً محروماً من معاونة شيخ مجرب كالبيلاوى ، آثر أن يستقيل من مجلس إدارة الأزهر . وتبعه فى تلك الاستقالة عضوان آخران من أعضاء المجلس هما الشيخ عبد الكريم سليمان والشيخ أحمد الحنبلى

تلك خلاصة لما حدث بالأزهر فى السنوات الأولى لهذا القرن ، ومنها يتبين مقدار ما لقى الشيخ محمد عبده من الأذى فى سبيل إصلاح مناهج التعليم والتربية فى الأزهر ، ومبلغ ما بذل من جهود لتقويم ما فسد من نظم الإدارة فيه

ولكن رغم ما عاناه المصلح من عنت الشيوخ الجامدين ، وما حيك حول مساعيه من دسائس الخديو وحزبه ، فإن شيئاً لا بد أن يبقى ولا تستطيع قوة أن تقضى عليه : ذلك البذر الصالح الذى ألقاه الأستاذ الإمام فى ذلك العهد يوم ألقى فيه دروسه فبث فيها من حر الآراء وسليم الأفكار ما نرجو أن يحسن الخلف القيام عليه

عثمان أمين

صدرت الطبعة الثانية من ديوان الشاعر على محمود طه

لياليِ الملاحِ التائهِ

طبعة ممتازة من تحوتة ألوانه على ورق فاخر وشكل جديد

يطلب من مكتبات التجارية والنهضة والهلال والانجلو والجامعة بالقاهرة ومن مجلة الرسالة ومن شركة فرج الله للسياحة

ثمن النسخة ١٢ قرشاً خلاف مصاريف البريد والنقل

إبراهيم حسن العمار يقدم

أحلام الخريف

ضمنه عشر قصص مصرية في ٢٦٠ صفحة

وغلاف بالألوان بريشة الفنان الكبير

عبد السلام الشريف